التعريب في الأمة العربية

للدكتور يحيى الخشاب
مدير الإدارة الثقافية للجامعة العربية

تطلع العثمانيون والصفويون الى الثقافة العربية كما تطلعت أوربا اليها قبلهم ، فجعلت من نقل علوم العرب الى اللاتينية بداية الانطلاق نحو الانبعاث الغربى .
منذ أكثر من مائة سنة بدأ العرب ينتبهون الى ضرورة اللحاق بركب الحضارة الاوربية التى كانت فى ظلام حين كنا أيمة الثقافة .

روى الجهشيارى فى كتابه الوزراء والكتاب انه لما قلد الحجاج العراق كان يكتب له صالح بن عبد الرحمن ، وكان يتقلد ديوان الفارسية اذ ذاك زادان فروخ ، فخلفه عليه صالح ، فخف على قلب الحجاج وخص به ! فقال لزادان اني قد خففت على قلب الحجاج ولست آمن أن ازيلك عن محلك لتقديمه اياي وأنت رئيسي .

فقال زادان : لا تفعل فانه أحوج الي مني اليه .
قال : فكيف ذلك ؟ .
قال : لا يجد من يكفيه الحساب .
قال صالح : اني لو شئت حولته بالعربية .
قال زادان ! فحول منه سطرا .
فحول صالح منه شيئا كثيرا .
فقال زادان لاصحابه : التمسوا مسكنا غير هذا .

وأمر الحجاج صالحا بنقل الدواوين الى العربية .

وهكذا بدأت حركة تعريب « الادارة » لكي يتحرر العرب من السيطرة الفارسية في هذا الميدان . ومن قبل كانت حركة التعريب « العلمية » ، فان الدولة العربية الاموية لم تكد تتسلم زمام العرب حتى قام الامير خالد ابن يزيد بن معاوية بتأليف لجنة من العلماء لكي ينقلوا علوم اليونان الى العربية فكانت ترجمة الى العربية في علوم الفلك والجغرافية .

واعقب ذلك حركة تعريب كبيرة في علوم الادب والتاريخ ، وكلنا يذكر ابن المقفع والكتب التي نقلها الى العربية ومنها كليلة ودمنة ومنها كتب تنسر . وكلنا يذكر عصر المامون وما كان عليه أمر التعريب ، التعريب عن اليونانية وعن الفارسية . فظهرت على أثر ذلك كتب في الطب وظهر أعلام من العرب ، المسلمين والنصارى على السواء ، في هذا الميدان . ظهرت أسرة بختيشوع التي كانت من أول الذين عربوا الطب ، ثم ظهر ابن سينا بقانونه كما ظهر الرازي وغيره في العالم العربى وظهر فى الرياضيات جابر بن حيان واخوانه . وظهرت في العلوم الانسانية كتب كثيرة بالعربية وكلها معربة عن الفارسية وكلنا يذكر حين يقرأ الادب والتاريخ العربيين أن كتابا من مثل ابن المقفع والجاحظ والمسعودى والبيرونى وابن سينا وغيرهم قد نقلوا الكثير عن كتب فارسية ويونانية وسنسكريتية ، وعلى هذا النحو عربوا كتب الايين والتاج وغيرها من كتب سير الملوك ، وكان المسعودى ينقل عن الفهلوية وكان البيروني ينقل عنها وعن السنسكريتية ، وكان ابن سينا ينقل عن اليونانية والسريانية وكان الحكام المسلمون في ذلك الوقت يشجعون حركة التعريب ويعملون على انشاء « خزائن » الكتب التي تحوى علوم الفرس واليونان معربة حتى ينهل منها علماء العرب ويصنفوا على غرارها كتبا لا تزال خير ما فى المكتبة العربية

ولما اجتاح المغول العالم الاسلامى كانت الثقافة العربية قد أضحت ثقافة أصيلة فكانت حركة النقل من العربية الى الفارسية وبدأت الثقافة العربية بدورها تتخذ لباسا فارسيا فقد نقل علماء المغول الكثير من هذه

الكتب ، ونرى ذلك واضحا في « جامع التواريخ » الذي كتبه رشيد الدين وزير هولاكو والذي جعل قسمه العام ترجمة فارسية خالصة لكتب عربية في التاريخ الاسلامي. وبالرغم من وطأة المغول القاسية ، قبل اسلامهم ، فان اكثر ما كتب ـ أصالة ـ في زمنهم باللغة الفارسية كان يكتب في الوقت عينه بالعربية لانها رغم الغزو المغولي ـ لغة الثقافة في العالم العربي الاسلامي . ومثال ذلك تاريخ جنكيز الذى نجده بالفارسية ونجده بالعربية ايضا . وكان رشيد الدين وغيره يكتب باللغتين معا .

ولم تقف حركة التعريب حتى في أشد العصور حلكة ، ففي عصري الممالك والعثمانيين عربت كتب كثيرة واذكر الآن على سبيل المثال ، الشاهنامة الفارسية التي نقلها الى العربية البنداري كما أتذكر الآن تراجم عربية لمثنوى جلال الدين الرومي ولكسلتان سعدي .

ويلاحظ المؤرخ المنصف أن هذه الفترة من تاريخ الامة العربية كانت تمثل ، رغم السيطرة السياسية الاجنبية ، سيادة الثقافة العربية فقد نقلت كتب كثيرة من العربية الى التركية والفارسية أيام العثمانيين والصفويين لان اللغة العربية كانت لغة الثقافة .

ولم يكم العثمانيون والصفويون وحدهم يتطلعون الى الثقافة العربية فمن قبلهم تطلعت أوربا الى ثقافتنا ، ونقلت الى اللاتينية كتبا كثيرة فى الطب والعلوم والفلسفة . ولعلنا نذكر فى هذا المجال كتب ابن سينا ، والرازي ، وجابر بن حيان والبيروني ، والزهراوي . والذي يقرأ كتابا غربيا في تاريخ الطب والفلسفة والعلوم العربية فى الحضارة الغربية ، يرى كيف كان نقل علوم العرب الى اللغة اللاتينية بداية الانطلاق الذي أعقب عصر النهضة في أوربا .

ومالي أذكر الماضي واخشى ان أطيل . فلأنتقل الى تجربة حديثة في « التعريب » قامت بها دولة من أمتنا العربية ، ولاشك أن اكثر من دولة عربية تقوم بالتعريب ولكني أقصر الحديث على الجمهورية العربية المتحدة واتخذ مما حدث فيها مثالا .

منذ اكثر من مائة سنة بدأ العرب ينتبهون الى ضرورة اللحاق بالتقدم العلمي الذي سبقت اليه أوربا ، التي كانت في ظلام حين كنا أئمة في الثقافة ، ثم أخذت عنا وكنا مغلوبين سياسيا على أمرنا ، فتقدموا وجمدنا وقطعوا شوطا بعيدا في العلم بينما كنا تحت وطأة الاستعمار نغط في نوم عميق . بدأ العرب يتنبهون الى ضرورة اللحاق بركب الحضارة فوفد على أوربا عدد كبير من الشبان العرب يتلقون العلوم والآداب ، فلما عادوا الى القاهرة انكبوا على الكتب التى درسوها فى الغرب فعربوها لكي يفيد منها الطلاب العرب . وقد كان المبعوث يجيء الى القاهرة فيقيم فى القلعة معززا ، حتى يفرغ من تعريب كتاب يختاره من أمهات الكتب التي درسها في أوربا .

وفتحت مدرسة للطب في القاهرة ، وكان التعليم فيها بالفرنسية ثم بالانجليزية ولكن عدد الشبان العرب الذين تنقوا الطب في أوربا يعودون الى مدرستهم ويبدأ التفكير في التعريب وتظهر كتب في فروع الطب بالعربية ، من جراحة الى تشريح الى طب باطني الى غير ذلك . وتظهر للطب مجلة عربية ويشتهر الطبيب حسن محمود ويتخرج من مدرسة الطب العربية جماعة من الاطباء رأيت منهم الدكتور محمد القلماوي الذي لا تزال اسرته تحتفظ بمكتبته الطبية العربية .

ويأبى الاستعمار ان تسير حركة التعريب في طريقها الطبيعي ، ولقد كان من خطته ان يخلف بين المثقفين جماعة يدينون بالولاء الثقافي والاجتماعي لانجلترا ، من كنا نسميهم **England men** أي رجال انجلترا ، أو كانوا هم يسمون انفسهم كذلك ، ويعود تدريس الطب بالانجليزية ، ولكن الى حين ، فان حركة طبية للتعريب يقوم بها جهاز متخصص تعمل على تعريب أمهات الكتب الطبية والعلمية يعمل الآن في القاهرة .

واريد أن أضرب مثلا بمجال التعريب في القانون ، بكل فروعه ، من مدني وجنائي واداري ومالى ودستوري واقتصادي ، فقد كان القانون والاقتصاد يدرسان في القاهرة بالفرنسية ثم بالانجليزية . وفكر لفيف من الشبان المثقفين ، في القاهرة ثم في فرنسا أو انجلترا ، في أن يعربوا تدريس القانون والاقتصاد ، فعربوه وجعلوا دراستهما في مدرسة الحقوق ثم في كلية الحقوق حين انضمت الى الجامعة ، باللغة العربية الخالصة . وانى لانكر من الرجال الذين قاموا بهذا العمل الجليل بنجاح تام الاساتذة : أبو هيف ومحمد صالح وكامل مرسي وأحمد أمين رحمهم الله ثم السنهوري والعشماوى ، فقد حمل هؤلاء الاعلام رسالة تعريب القانون والاقتصاد ، وكانوا العماد الذي عربت على أسسه النظم القضائية والادارية والاقتصادية في الجمهورية العربية المتحدة .

أحب أن الفت النظر بعد هذا الى ثلاث نقط :

الاولى : أننا حين ندعو الى التعريب ندعو في الوقت نفسه الى دراسة اللغات الاوربية في مدارسنا حتى يكون في استطاعة الطالب أن يرجع الى المراجع

الاروبية اذا كان ممن سيواصلون التعليم فوق الليسانس ، فنحن نعنى بتدريس لغة أروبية فى التعليم الثانوى ويتابع الطالب دراسة هذه اللغة في الجامعة ليقرأ بها المراجع التي يتطلب الرجوع اليها ، واذا فنحن لا نقطع صلاتنا الثقافية بالغرب ولكننا نعتز بلغتنا ونريد أن نتعلم بها وفي الوقت نفسه نعني عناية فائقة بالثقافة التي تعد اللغة الاجنبية وسيلة اليها ، لنكون على صلة دائمة بالتقدم العلمى العالمى .

فلا يقولن أحد اننا « بالتعريب » ننقطع عن الثقافة العالمية .

النقطة الثانية : أننا يجب أن نثق بانفسنا حين ندعو الى «التعريب» فنحن أمة مشهود لها بالذكاء وبالاصالة ، من قبل كنا حملة مشعل الثقافة وآن الاوان اليوم لان نحمل هذا المشعل .

أضرب اليكم مثلا بالشبان الذين يتخرجون في جامعاتنا العربية ثم يوفدون الى أوربا أو أمريكا ليتابعوا دراساتهم للدكتوراه . كثير من هؤلاء تغريهم الجامعات فى الخارج بالبقاء فيها كأساتذة ، ولما يمض على تلقيهم العلم فيها أكثر من سنتين . لو كنا أمة متخلفة لما استبقت أمريكا مثلا في جامعاتها عددا من مهندسينا واطبائنا لكي يعلموا في جامعاتها . فلنثق اذا في انفسنا ولنعلم أن العلم ليس قاصرا على الغربيين وحدهم ، ولنعمل لامتنا بلغتنا وعلى طريقتنا .

النقطة الثالثة : قضية اللهجات ان صح أن لها قضية. فقد سمعت أنبين بلاد الامة العربية اختلافا في اللهجات، الامر الذي يجعل تعريب المصطلحات العلمية عسيرا . ليست اللهجات المتعددة مما يثير الخوف أبدا . فاهل القاهرة حين ينتقلون الى صعيد مصر من الجمهورية العربية المتحدة يسمعون لهجة خاصة وكذلك اذا انتقلوا الى الاسكندرية ، ولا يفيد هذا اختلافا في اللغة ، فاللهجات موجودة في كل أمة ولا ضير على اللغة ، والمصطلحات تشتق من العربية الفصحى ، من لغة القرآن ، اللغة التي تجمع الامة العربية كلها . ولذلك لا يخيفنا أن تتعدد لهجاتنا لان الجامع بيننا لغة القرآن التي تعد هذه اللهجات محلية خالصة بالنسبة لها .

انما انني يجب أن نعمله هو أن نخلي هذه اللهجات من الهجين الدخيل الذى أدخله الاستعمار معه . فلننبذ الكلمات الانجليزية والفرنسية ولنتمسك بلغتنا العربية الفصحى ولا ضير علينا من تعدد اللهجات المحلية .

فلنسر اذا قدما في « التعريب » وليكن شعارنا أن الاستقلال السياسي لا يتم بغير الاستقلال الثقافي . وان العزة كل العزة والكرامة كل الكرامة أن تكون لغتنا هي لغة ثقافتنا .